

أدب التوقعات

سليمان مختار إسماعيل

جامعة مصراتة

مقدمة

يندرج هذا اللون من الأدب ضمن الفنون النثرية في الأدب العربي، ويتصل بالكتابة والكتاب، ولعل في دراسته والوقوف عنده كشفاً عن العقلية العربية ومكانتها عبر التاريخ، ووضع تصور لما كان عليه أرباب هذا الفن من قدرات جعلت أدهم خالداً عبر الأجيال. لقد صدرت هذه التوقعات عن فئة خاصة يمثلون الشريحة المتميزة بامتلاكهم لزام الأمر وتحملهم لأعلى السلطات في البلاد، فحوت هذه التوقعات التي نحن بصدد دراستها ألواناً من النشاط الإنساني، وصنوها من صور الحياة العامة.

ومما يعزز قيمة هذه التوقعات ويدعو إلى دراستها فبالإضافة إلى أنها كانت في غالب الأحيان تصدر عن شريحة معدودة من عليا أبناء المجتمع العربي وساسته، خلفاء ووزراء وأمراء وقضاة، فإن هؤلاء جميعاً لا بد أنهم كانوا علماء يمتازون بالفطنة والذكاء والقدرة المتميزة على الإبداع والعطاء. الأدب العربي نثر وشعر. فالنثر قسيم الشعر في باب الأدب، ولعله من نافلة القول أن أشير هنا إلى أن مرادنا بالنثر المعني بالدراسة ليس ذلك الكلام الذي يتخاطب به الناس في حياتهم اليومية وقضاياهم المألوفة، فذاك نثر عادي لا شأن لدارس الأدب به، لأن منشئه لا يعنى بالتأنق في اختيار ألفاظه، وانتقاء كلماته وتأليفها تأليفاً خاصاً يثير انتباه السامع ويشده إليه، فهذا مما لا يحفل به دارس الأدب ولا يهتم بالبحث فيه.

وإنما النثر المقصود بالدراسة هو النثر الفني، ذلك اللون الجميل والكلام المقصود المنتقى بعناية الذي يعتمد على حسن الصوغ وجودة السبك، والذي حده بعضهم بأنه: "الكلام المنسق المفصح عن الخواطر والمواقف والمشاعر دون التزام وزن أو قافية بل بإثبات التسلسل المنطقي"¹.

¹ نقاط التطور في الأدب العربي، علي شلق، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، 1975م، ص: 355.

والنثر لخلوه من الضوابط والقيود التي في الشعر فقد سبقه وأكثر منه العرب بمقدار فاق
أضعاف ما صاغوه شعراً، حتى قيل "ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به
من جيد المزون فلم يحفظ من المنشور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"².

وفي موضوع السبق والأفضلية بين الشعر والنثر خلاف واسع، وحجج القائلين بتفضيل
النثر على الشعر لا تقل عن حجج من يخالفونهم الرأي ومن يذهبون إلى تفضيل الشعر على النثر،
وفي هذا الموضوع لا أريد أن أتوسع كثيراً ولا أن أجذر وأبحث في كل هذه القضايا الشائكة
والخلافات الطائفة، فحسبي الإشارة.

إن من خصائص النثر الفني بعامه ما امتاز به من الجزالة، وعدم التصنع الانشائي، والإيجاز
البلغ بقصر العبارات، فالجمل القصيرة المحكومة الأداء المتوازنة اللفظ تدوي في النفوس وتخلف
فيها أثراً وانفعالا أكثر من غيرها.

إن الدارس ليلحظ تعدد الفنون النثرية وكثرتها وتفاوتها في جانب الكم والنوع والقيمة
الفنية وتفاوت الاحتفاء بها سواء من الأدباء المنشئين أم من الأدباء الدارسين، وفي هذا البحث أقصر على
جزئية أو موضوع واحد من موضوعات النثر العربي، موضوع انفراد به الأدب العربي وعرف فيه دون
غيره من آداب الشعوب. أو هكذا ادعى بعضهم، وهذا الموضوع لم أقف على من أفرد له كتاباً أو خصه
بالتأليف منفرداً عن موضوعات النثر الفني الأخرى وإنما وجدته يرد عرضاً ويلحق بالأنواع النثرية
بشكل مختصر دون أن يتوقف عنده الدارسون أو يعنوا به العناية التي يستحقها فيما رأيت، وأعتقد أن
هذا الموضوع وإن لم يرق إلى مستويات الفنون النثرية الأخرى كالخطابة، والكتابة، والأمثال،
لكنه فن نثري يستحق أن نلتفت إليه وأن نقف عنده لنرى ما فيه من إبداع فني في الشكل
والبناء، وعمق فكري في المحتوى والمضمون، ولنعرف ما اختص به وما ميزه عن غيره من فنون
الأدب العربي وما اشترك فيه معها، لهذه الأسباب وغيرها أردت أن أرجع إلى المكتبة العربية وإلى
كتب الأدب على وجه الخصوص لبحث هذا الموضوع من خلال الوقوف على الجوانب التالية:

المفهوم

النشأة والتطور

صفات أصحاب التوقيعات.

² العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجليل،

أنواع التوقيعات الأدبية

الخصائص الفنية للتوقيعات الأدبية

نماذج مختارة من التوقيعات الأدبية

المعنى اللغوي والاصطلاحي للتوقيعات:

والتوقيعات "Signing Quotations"، وهي جمع توقيع، مصدر للفعل وَقَّعَ - بتضعيف العين. توقيعاً، وأما وقع مخففة فمصدرها: "وقوعاً"، جاء في مقاييس اللغة: وقع الغيث سقط متفرقاً وهو أثر الدبر بظهر البعير، ومنه التوقيع: ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه³.

وفي القاموس المحيط جاء في مادة وقع: ... وقع القول عليهم وجب، والحق ثبت، والإبل بركت، والدواب ربضت، ... والتوقيع ما يوقع في الكتاب⁴.

وذكر الكفوي في الكليات بعض ما ذكرته المعاجم اللغوية وقال: "... والربيع بالأرض حصل، والوقوع فيه قد يراد به الوجود معه... والوقعة الحرب"⁵.

والتوقيع العهد وهو: وسم عليه "طغراء" السلطان أي علامته، ووقع الكتاب أو نحوه وضع اسمه في ذيله⁶. وجاء في أساس البلاغة، وقع الشيء على الأرض وقوعاً، وأوقعه إيقاعاً، ووقع الطائر على الشجرة، وتوقعته ترقبت وقوعه، وانتجعوا مواقع الغيث ومساقطه، وأصفى من ماء الوقية، والوقائع وهي المناقع، ومن المجاز قولنا وقع في كتابه توقيعاً⁷.

فإذا عدنا إلى هذه المادة "وقع" في القرآن الكريم وجدنا أنها قد وردت فيما يقرب من اثنتي عشرة مرة، وجاءت بدلالات مختلفة، يمكننا بعد استعراضها وتتبع سياقاتها التي جاءت فيها أن نرجعها إلى حقل دلالي متقارب، وهي على النحو التالي:

³ مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، راجعه وعلق عليه أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ، 2008م، ص: 964.

⁴ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة: وقع.

⁵ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1433هـ، 2012م، ص: 795.

⁶ رائد الطلاب، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1981م، مادة: وقع.

⁷ أساس البلاغة، محمد جار الله الزمخشري، مادة وقع.

- 1 - في قوله تعالى: "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ"⁸.
- 2 - وفي قوله تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"⁹.
- 3 - وفي قوله تعالى: "قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ"¹⁰.
- 4 - وفي قوله تعالى: "فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"¹¹.
- 5 - وفي قوله تعالى: "وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ"¹².
- 6 - وفي قوله تعالى: "أَتُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ"¹³.
- 7 - وفي قوله تعالى: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ"¹⁴.
- 8 - وفي قوله تعالى: "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ"¹⁵.
- 9 - وفي قوله تعالى: "إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ"¹⁶.
- 10 - وفي قوله تعالى: "لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ"¹⁷.
- 11 - وفي قوله تعالى: "فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ"¹⁸.

فالفعل الوارد في الآيات الكريمة وهو الفعل "وقع" الثلاثي مخففا، تكرر في تسع آيات بصيغة الماضي، وجاء مرة بصيغة المضارع "يوقع"، ومرة بصيغة اسم الفاعل "واقعة"، وهذه الأفعال قريبة في دلالتها ومعناها تدل على وقوع الشيء وتحققه، فكأنه سمي توقيعا لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سبب لوقوع الأمر أو نفاذه، من قولهم: أوقعت الأمر فوقع.

⁸ سورة النساء، الآية 99.

⁹ سورة المائدة، الآية 93.

¹⁰ سورة الأعراف، الآية 70.

¹¹ سورة الأعراف، الآية 117.

¹² سورة الأعراف، الآية 133.

¹³ سورة يونس، الآية 51.

¹⁴ سورة النمل الآية 81.

¹⁵ سورة النمل الآية 87.

¹⁶ سورة الواقعة الآية 1.

¹⁷ سورة الواقعة الآية 2.

¹⁸ سورة الحاقة الآية 14.

ولعل الفعل "وَقَّعَ" بتشديد عين الكلمة وهو فعل المصدر الذي صيغ منه مصطلح ما نحن بصدده لا يبعد عن دلالة الفعل الوارد في الآيات الكريمة، ففيه معنى التحقيق والإثبات وتأكيد ما نص عليه في الرقعة أو الكتاب موضع التوقيع.

وأما في اصطلاح الأدباء فإن التوقيع في الأدب العربي يعني رأي الحاكم يكتبه على ما يقدم إليه من شؤون الدولة¹⁹، إذن فهو فن مكتوب يرتب على فن آخر مكتوب، كما نلاحظ من خلال التعريف أنه فن رسمي يصدر عن صانعي القرار وأصحاب السلطة. خلفاء أو أمراء أو وزراء ومن في حكمهم. ولعل هذا هو الغالب والأصل وقد نجده عند غيرهم، ومما يمكن أن يستفيدة الدارس ويستنتجه من يتأمل هذا التعريف أن الساسة وولاة الأمر في الدولة العربية الإسلامية كانوا في الغالب أدباء ومن أصحاب الذوق الرفيع والحس المرهف والدراية التامة باللغة العربية وفنونها، الأمر الذي جعلهم يتقنون ويبدعون في إنشائها، ويكرمون أهلها وينزلونهم المنزلة التي تليق بهم، فإنما يعرف الفضل من الناس ذووهم.

وقال القلقشندي: عن التوقيع "في اصطلاح الأقدمين من الكتاب إنه اسم لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدم، وكخط كاتب السر الآن، ثم غلب حتى صار علما على نوع خاص مما يكتب في الولايات وغيرها"²⁰.
 والتوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه، وقيل هو أن يجمل - يعني الموقع - بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول²¹. وفي المعجم الأدبي: وقع الحاكم على كتاب الشكوى، كتب حكمه في القضية المرفوعة إليه بأوجز عبارة²².

النشأة والتطور:

الفنون النثرية كثيرة ومتنوعة، منها ما هو ضارب في أعماق التاريخ لا نعرف له بداية ولا نشأة كالخطابة والأمثال، ومنها الحديث الذي لم يكن للعربية عهد به. بهذه التسمية والمواصفات - من قبل، أو لعله تطور عن فن نثري آخر كبعض فنون السرد الحديثة كالرواية والمسرحية ونحوهما،

¹⁹ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، ص: 127.

²⁰ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 11 - 113.

²¹ لسان العرب، ابن منظور، مادة "وقع".

²² المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص: 294.

وهذا النوع الذي نحن بصدد بحثه والحديث عنه اليوم هو من الفنون النثرية التي انتشرت بعد انتشار الكتابة وذيوعها ، لأن هذا الفن هو فن مكتوب ، كما سيأتي.

وليس من السهل ادعاء معرفة بداية هذا الفن وأوليّات ظهوره ونشأته فالبداية غالباً ما يشوبها الغموض ويكتنفها الخفاء ، كما أنها تتسم في غالب الأحيان بالبساطة والسذاجة وعدم العمق، شأن الأشياء في بدايات التكوين.

وفن التوقيعات نشأ ضمن الفنون النثرية الأخرى، وارتبط بالرسائل والكتابة، وكان يرد ضمن الكتب التي يبعث بها الخلفاء وولاة الأمر، أو ترد إليهم، فكانت في نشأتها شأنها شأن الكتابة والرسائل.

ومعلوم أن العرب أمة أمية، فجلهم لا يعرفون قراءة ولا كتابة، والأمية كانت غالبية عليهم ومنتشية فيهم، لغلبة الترحل والبداوة، مما جعلهم في منأى عن القلم والقرطاس، فجاء الإسلام وليس في قريش إلا سبعة عشر رجلاً وبعض النساء يكتبون ويقرؤون، وقريش سادة العرب وأنبه القبائل وأكثرها تحضراً وتمازجاً بالشعوب المجاورة²³.

ويظهر الإسلام سرت في الأمة روح العلم ونشط التعليم، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبة كانوا يكتبون له الوحي، وكتب بعضهم له رسائله إلى الملوك والأمراء، وكتب بعضهم حوائجه²⁴.

ثم غدت الكتابة منصباً مهماً في الدولة، فاتخذ عمر رضي الله عنه زيد بن ثابت كاتباً له، وبالفتوحات الإسلامية واتساع الدولة احتاج الخلفاء لمزيد من الكتاب، حتى إن عمر رضي الله عنه عين لكل ولاية كاتباً يكتب ديوانها. وفي عهد بني أمية تنوعت وظيفة الكتاب، وخصص كل منهم في مجال معين، فكانوا خمسة أصناف:

1 - كاتب الرسائل. 2 - كاتب الخراج. 3 - كاتب الجند. 4 - كاتب الشرطة. 5 - كاتب القضاء.

وكان أعظم هؤلاء وأعلاهم رتبة كاتب الرسائل لأن بيده جميع أسرار الدولة والخلافة،

لذلك فإن الخلفاء لم يكونوا يسندون هذا المنصب إلا لمن يتقون به من أقاربهم وخاصتهم.

²³ انظر فتوح البلدان، للبلاذري، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت 1991م، ص: 174.

²⁴ حضارة العرب في صدر الإسلام، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،

1412هـ، 1992م، ص: 171.

وفي العصر العباسي حرص الخلفاء على أن يتولى كتابة الرسائل أناس من ذوي النسب الرفيع ومن كانوا يتمتعون بسعة العلم وعمق الثقافة، وقد قرب الخلفاء الكتاب منهم حتى إن الكاتب ربما جلس مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوى، ثم يدفعها للخليفة لختمها وتوقيعها²⁵.

هكذا كانت الكتابة في صدر الإسلام، وهكذا كان شأنها ومنزلتها وهكذا كانت مكانة الكتاب عالية رفيعة، فإذا حاول الباحث أن يقف على أقدم توقيع ذكرته كتب الأدب، وجد صعوبة في ذلك، وبرغم يقيننا بأن هذا الفن موجود منذ صدر الإسلام، إلا أنني لم أقف على توقيع للكتب التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو صدرت عنه، لكنني وجدت هذا عند أصحابه الأوائل رضي الله عنهم، فقد وردت توقيعات لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الخلفاء، أما نشاط هذا الفن وازدهاره فكان في العصر العباسي وما تلاه.

وذكر بعض الباحثين أن فن التوقيعات فن فارسي النشأة وأنه لا عهد للعرب به قبل أن يتصلوا بالحضارة الفارسية في العصر العباسي²⁶، ويرى هؤلاء أن أدب التوقيعات إنما انتقل إلى العرب بعد أن تحضروا وانتشرت بينهم الكتابة، ودليله فيما ذهب إليه ما ذكره الرواة من توقيعات لكسرى أنو شروان، وأن هذا الفن يعتمد الكتابة وسيلة له وهي ليست متوفرة بين العرب يومها، وانتفاء الوعاء يستلزم انتفاء ما يمكن أن يُحمل فيه، وممن ذهب إلى هذا الرأي الأستاذ أحمد أمين مستندا إلى رأي ابن خلدون الذي يقول: "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ..."²⁷ ويعلل ابن خلدون ذلك بأن العلوم من ضمن الصنائع، والصنائع من متخل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها²⁸، ومما وقفت عليه ما ذكره أحمد أمين عند حديثه عن أثر الفرس في الثقافة العربية قوله: وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير وهو باب "التوقيعات"، ذلك أن الفرس قبل الإسلام كانوا يعنون بالبلاغة عناية كبرى، وكان من مظاهر تلك العناية بالبلاغة والحكم التوقيعات، إذ كانوا يوقعون إلى ولاية أمورهم أوراقا تتضمن طلب شيء أو شكوى من شيء، وكانت تسمى عند العرب قصصاً، سميت بذلك على سبيل المجاز تسمية لها بما يكتب فيها، كما تسمى رقاعاً لصغر حجمها تشبيهاً لها بما

²⁵ حضارة العرب في صدر الإسلام، حسين الحاج حسن، ص: 73.

²⁶ ضحى الإسلام، أحمد أمين، 1، 187.

²⁷ المقدمة، ابن خلدون، ص: 452.

²⁸ المصدر السابق، ص: 452.

يرقع به الثوب، وكانت هذه القصة ترفع إلى الملك أو من يليه تبعاً لموضوعها، وتبعاً للمتظلم وقدره، وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بليغة أو حكمة حكيمة يتخير لها أحسن اللفظ وأجود المعنى، ثم تحفظ ويتناقلها الناس²⁹.

فلما اتصل العرب بالحضارة الفارسية وترجمت أعمالهم، واستخدم الخلفاء كثيراً من الفرس في وظائف الدولة المختلفة انتقلت كثير من تلك التوقيعات إلى الأدب العربي، ولما تحضر العرب وانتشرت بينهم الكتابة، وحرروا مطالبهم في رقع بعدما كانوا يشافهون بها أمراءهم كان لهم توقيع.

وقد نقلت للعرب توقيعات منذ الخلفاء الراشدين وبنو أمية، ولعل تلك التوقيعات كانت شفوية فحولت إلى توقيع، ثم سال سيل التوقيعات في عهد بني العباس، وكان أكثر الكتاب والوزراء فرسا فساروا فيها على نهج آبائهم، وكثر ذلك حتى أنشأوا ديواناً أسموه "ديوان التوقيع"³⁰ هكذا يرى من ذهب إلى أن التوقيعات من آثار الثقافة الفارسية في الأدب العربي.

وفي مقابل هذا الرأي رأي آخر لعله أبعد عن التعصب يرى أن هذا النوع من الفنون النثرية - أعني فن التوقيعات - فن عربي أصيل نابع من صميم الفكر العربي³¹، والدليل هو أن العرب عرفوه واستخدموه في وقت مبكر قبل أن يحتكوا بالفرس ويعرفوا حضارتهم، فقد وجدت التوقيعات لدى الخلفاء الراشدين كعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، كما أن ما نجد في التوقيعات من إيجاز واختصار هو من أهم خصائص العقلية السامية، لا العقلية الآرية التي تتسبب إليها اللغة الفارسية، ومما يدعم هذا الاتجاه أيضا - أن التوقيعات عربية النشأة - قريبا من صيغ الأمثال واشتراكها معها في كثير من خصائصها، ولسنا في حاجة إلى التدليل على أن الأمثال عربية النشأة³².

ولست أستبعد أن يكون هذا الفن قدرا مشتركا بين الشعوب والأمم، فلعل العرب قد عرفوه واستخدموه، ثم زاد انتشاره بينهم وترسخت معرفتهم به بعد انتشار الكتابة بشكل أوسع إبان الحضارة العربية الإسلامية زمن الدولة العباسية، ومن المؤكد أن ذلك العصر قد غلب فيه

²⁹ ضحى الإسلام، أحمد أمين بتصرف 1. 188.

³⁰ ضحى الإسلام، أحمد أمين، بتصرف، 1. 188.

³¹ تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، 3، 197، نقلاً عن: مظاهر الشعبية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد نبيه حجاب، ص: 393.

³² مظاهر الشعبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد نبيه حجازي، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، ص: 393.

العنصر الفارسي على الدولة فكان أكثر الوزراء والكتاب من الفرس، فنقلوا ما عرفوا من حضارة أمتهم إلى ما وجدوا من حضارة دولتهم العربية الإسلامية التي صاروا جزءاً منها، لذلك نجدهم قد اهتموا بالتوقيعات واستعملوها في مكاتباتهم بكثرة حتى أنشأوا لها ديواناً خاصاً، عرف بديوان التوقيع كما سبق³³.

مواصفات أصحاب التوقيعات:

إذا رجع الباحث إلى ما ورد إلينا من هذه التوقيعات الأدبية وتأملها وحاول التعرف على أصحابها وجد أن جميعهم ممن وصفنا سابقاً، أعني من أصحاب السلطان والملك، فهم إما خلفاء، أو أمراء، أو وزراء، أو وجهاء وأناس معتبرون وليسوا عاديين، فأدب التوقيعات أدب رسمي وليس أدباً شعبياً. وممن وجدت لهم توقيعات من هذه الأصناف ما يلي:

أولاً الخلفاء: منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهم، ويزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد، والسفاح، وأبو جعفر، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والمأمون³⁴.

ثانياً الأمراء: منهم زياد، والحجاج بن يوسف، وأبو مسلم، وجعفر بن يحيى، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل ذو الرياستين، وظاهر بن الحسن³⁵.

أنواع التوقيعات وأساليبها:

اختلفت الصور والأساليب التي جاءت عليها هذه التوقيعات فمنها ما جاء في قالب آية قرآنية، كما ورد عن يزيد بن معاوية أن مسلم بن عقبة المري كتب إليه بالذي صنع أهل الحرة فوقع في أسفل كتابه " فَلَا تُؤَسَّ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"³⁶، وكما في توقيع أبي مسلم في كتاب سليمان بن كثير الخزاعي: " لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"³⁷.

³³ انظر ضحى الإسلام، أحمد أمين، 1. 192.

³⁴ العقد الفريد، بن عبد ربه، 3. 231. 240.

³⁵ المصدر السابق، 3. 240. 242.

³⁶ سورة المائدة، الآية: 28.

³⁷ سورة الأنعام، الآية: 67.

ومنها ما جاء في صيغة المثل السائر، كما في توقيع علي رضي الله عنه في كتاب بعثه إلى طلحة بن عبيد الله بقوله: " في بيته يؤتى الحكم"³⁸.

ومنها ما جاء في قالب بيت شعر يتمثل به صاحب التوقيع، فيقع في موضعه من المعنى أيما موقع، كما في توقيع سليمان بن عبد الملك على الكتاب الذي جاءه من قتيبة بن مسلم يهدده فيه بالخلع فوقَّع فيه:

زعمَ الفرزدقُ أن سيقتلُ مربعاً أبشُرُ بطولِ سلامةٍ يا مربع³⁹

وكما ورد عن عبد الملك بن مروان أنه وقَّع في كتاب بن الأشعث:

فما بالُ من أسعى لأجبرَ عظمهُ حفاظاً ونيوي من سفاهتهِ كَسري⁴⁰

ومن التوقيعات ما جاء في شكل عبارة من إنشاء صاحب التوقيع، وهي أغلب التوقيعات، من ذلك ما وقَّع به هشام بن عبد الملك على كتاب متظلم حيث كتب له: "أتاك الغوث إن كنت صادقاً، وحل بك النكال إن كنت كاذباً، فتقدم أو تأخر"⁴¹.

ووقع الحسن بن سهل ذو الرياستين في كتاب امرأة رضع إليه وقد حبس زوجها: "الحق يحبسه والإنصاف يطلقه"⁴².

³⁸ ورد هذا المثل ضمن مجموعة من الأمثال والرموز العربية، فقد قالوا: وجدت الضبع تمرة فاخلسها الثعلب فلطمته فلطمها فتحاكما إلى الضب فقالت: يا أبا الحسل، قال: سمياً دعوت، قالت: جئناك نحتكم إليك، قال: في بيته يؤتى الحكم، فقالت: إني التقتلتمرة، قال: حلوا جنيت، قال: إن الثعلب أخذها، قال: حظ نفسه بغى، قال: لطمته، قال أسفت والبادئ أظلم، قال: فلطمني، قال: حر انتصر، قالت اقض بيننا، ... كتاب جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ، 1988م، 297/1، رقم المثل 554، انظر العقد الفريد، 3م، 231.

³⁹ هذا البيت لجرير بن عطية الخطفي، وهو في ديوانه، شرح حمدو طماس، دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الأولى 1424هـ، 2003م، 248.

⁴⁰ هذا البيت للأجرد، واسمه مسلم بن عبد الله بن سفيان بن معتب، شاعر من ثقيف وفد على عبد الملك بن مروان في نفر من الشعراء، فقال له: إنه ما من شاعر إلا وقد سبق إلينا من شعره قبل رؤيته فما قلت؟ قال: أنا القائل:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الدليل الذي ليست له عضد

وهو القائل: ما بال من أسعى... الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الثقافة، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، 1400هـ، 1980م، 620/2.

⁴¹ العقد الفريد، بن عبد ربه، 234/3.

⁴² العقد الفريد، بن عبد ربه، 242/3.

الخصائص الفنية للتوقيعات الأدبية:

1. السجع

لعل من أهم الخصائص الفنية وأبرز المحسنات البديعية التي نلاحظها في فن التوقيعات ظاهرة السجع، فهو حلقة قديمة أولع بها العرب، وعنصر كريم من عناصر بلاغتهم، كما كان أداة من أدوات الصنعة ومظهراً من مظاهر التعبير، ووسيلة فعالة من وسائل التعليم، يعين على تلقف الذهن للكلمات، وسهولة حفظها ونقلها في الغالب⁴³، وقد أشار إلى هذه المعاني عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي عندما سُئل: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ فأجاب: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا السامع الشاهد لقل خلاي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد وبقلة التفتل⁴⁴، أضف إلى ذلك ما عرف به العرب من التلذذ الذوقي باللغة من حيث جرس الألفاظ ورنينها ووزن لحنها الموسيقي.

فالسجع يأتي في رأس مظاهر الزخرفة الأسلوبية، وعلى الرغم من قدم استخدامه في سجع الكهان منذ العصر الجاهلي إلا أنه ظل أثيراً في نفوس مستخدميه، يتوارد على ألسنة الناثرين ويجري على أقلامهم، فنجده مسطراً في تلك العبارات الوجيزة الصادرة في صكوك الخلفاء والأمراء الأوائل والتي تعرف بالتوقيعات، ومن الأمثلة على ذلك ما وقعته الوزير جعفر بن يحيى البرمكي في عهد هارون الرشيد - وكان كاتباً مجيداً - إلى بعض عماله: "قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فيما اعتدلت وإما اعتزلت"⁴⁵.

2. الإيجاز

أثنى الأدباء على الإيجاز ومدحوا أصحابه واستحسنوا صنيعهم، فقالوا إن الإيجاز أشرف الكلام حسناً، وأرفعه قدراً، وأعظمه في القلوب موقِعاً، وأقله على اللسان عملاً، فبعضه يدل على كله، ويكفي قليله عن كثيره، ويشهد ظاهره على باطنه.

⁴³ الأمثال في النثر العربي القديم، عبد المجيد عابدين، الطبعة الأولى، دار مصر لطباعة، 1965م، ص: 154.

⁴⁴ البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، 1984، 1. 287.

⁴⁵ العقد الفريد، 242/3، وانظر ملامح النثر العباسي، عمر الدقاق، دار الشرق العربي، بيروت، ص: 394.

والكلام إذا قلت حروفه وكثرت معانيه كان أجود، حتى اعتبرت الإشارة أبلغ من اللفظ. فنجد العرب - إذا خطبوا أو كتبوا - يرغبون في الإيجاز ويكرهون الإطناب والإسهاب، ويحبون التخفيف والحذف، ويهربون من الثقل والتطويل، فكان قصر الممدود أحب إليهم من مد المقصور، وتسكين المتحرك أخف عليهم من تحريك الساكن⁴⁶. فكان من خصائص التوقيعات ما نجده فيها من إيجاز واختصار، فهي عبارات معدودة وألفاظ معدودة، تخلو من المقدمات والخواتيم، ومرجع هذا الإيجاز عائد إلى طبيعة الحياة وموضوع التوقيع وسهولة الفكرة والمعنى الذي يتضمنه التوقيع، فلم يكن يستدعي شرحاً ولا تفصيلاً ولا برهنةً ولا دليلاً، ولم يكن في الحياة معان فكرية متطورة، ولا فلسفة عميقة تستدعي بسط الكلام وإطالته، ولا حياة متقدمة معقدة تقتضى أكثر مما جاءت عليه. وكما كانت التوقيعات قصيرة موجزة في عمومها فكذلك كانت فقراتها وجملها، إذ الجمل القصيرة أكثر خدمة للغرض، وهو نقل الأفكار للسامعين بعبارات موجزة تفهم بسرعة ويسر وسهولة، كما كانوا يهدفون إلى مراعاة الموسيقى اللفظية التي لا تتوافر إلا في الجمل القصيرة المحكمة الأداء المتوازنة، فهي التي تشد النفوس وتخلف فيها أثر الانفعال أكثر من غيرها، ومن دواعي الإيجاز أيضاً تسهيل حفظها وتيسير نقلها عبر الأجيال وذيوها وشيوعها انتشارها بين الناس. هذه هي السمة الغالبة، فإن وجد فيها طول فبقدر لا يخل بهذه الغايات التي يحرص الموقع لأجلها على الإيجاز والاختصار.

3. بعض المحسنات البديعية الأخرى:

ومن تأمل هذه التوقيعات وجد فيها كثيراً من المحسنات البديعية الأخرى، كالطباق، والجناس، والتضاد، وغيرها، ولا غرابة في ذلك، فالعصر الذي أنشئت فيه عصر فصاحة وبلاغة وبيان، وأصحابها الذين حرروها كانوا أهل لسن، وقدرة على صوغ العبارة المؤثرة، والمعنى الجيد، والتعبير المحكم المتصف بالإبداع الفني، فلغة هذه التوقيعات لغة فنية تدل على تمكن أصحابها وطابع عصرها.

نماذج مختارة من التوقيعات

وبعد، فهذه مجموعة من التوقيعات المختلفة أجعلها خاتمة لهذا البحث لا أقصد بها حصراً ولا استقصاءً، وإنما هي نماذج مختارة وممتوعة، أقتصر فيها على توقيعين أو ثلاثة لمن كان له أكثر من هذا العدد، وأجعل ترتيبها بحسب صفات أصحابها:

⁴⁶ انظر العقد الفريد، ابن عبد ربه، 3م190.

أولاً: من توقيعات الخلفاء

1 . من توقيعات عمر رضي الله عنه:

أ . كتب سعد بن أبي وقاص كتاباً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشيريه في شأن بناء يريد إقامته، فكان توقيعه على الكتاب: " ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر"⁴⁷
 ب . ووقع رضي الله عنه في كتاب أرسله إلى عمرو بن العاص: " كُنْ لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك"⁴⁸

2 . من توقيعات عثمان رضي الله عنه:

أ . وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم، " فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِيَّيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ"⁴⁹
 ب . ووقع في قصة رجل شكك من عيلة " قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس من مال الله فضل للمسرف"⁵⁰
 3 . توقيعات علي رضي الله عنه:

أ . وقع إلى طلحة بن عبد الله: " في بيته يؤتى الحكم"⁵¹

ب . ووقع في كتاب جاءه من الحسن بن علي: " رأي الشيخ خير من مشهد الغلام"⁵²

4 . من توقيعات معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

أ . وقع في كتاب لعبد الله بن عامر يسأله أن يقطع له مالا بالطائف: " عش رجلاً ترى عجباً"⁵³
 ب . ووقع إلى عبد الرحمن بن زياد عامله في خراسان: " القرابة والشجرة والأفعال متباينة، فخذ لرحمك من فعلك"⁵⁴

5 . عبد الملك بن مروان:

أ . كتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرفهم، فوقع له: " إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون"⁵⁵

⁴⁷ العقد الفريد، 231/3.

⁴⁸ العقد الفريد، 231/3.

⁴⁹ سورة الشعراء، الآية: 215، انظر العقد الفريد، بن عبد ربه، 231/3.

⁵⁰ العقد الفريد، بن عبد ربه، 231/3.

⁵¹ العقد الفريد، بن عبد ربه، 231/3.

⁵² العقد الفريد، بن عبد ربه، 231/3.

⁵³ العقد الفريد، بن عبد ربه، 232/3.

⁵⁴ العقد الفريد، 232/3.

6 . الرشيد :

- أ - وقع إلى صاحب خراسان: "داو جرحك لا يتسع"⁵⁶
 ب - ووقع في حادث البرامكة: " أنبتهم الطاعة وحصدتهم المعصية"⁵⁷
 ج - وكتب نفقوز ملك الروم إلى الرشيد يتهدده، فوقع الرشيد في كتابه بقوله: "الجواب ما تراه لا ما تقرأه"⁵⁸

7 . المأمون :

- أ - وقع إلى علي بن هشام في أمر تظلم فيه منه: "من علامة الشريف أن يظلم من فوجه، ويظلمه من
 دونه، فأى الرجلين أنت؟"⁵⁹
 ب - وكتب أهل السواد يشكون إليه إتيان الجراد على غلالهم فوقع في رقعتهم المرفوعة إليه:
 "نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد، فليحط عنهم نصف الخراج"⁶⁰

ثانياً: من توقيعات الأمراء والوجهاء

1- زياد :

- أ - كتبت إليه عائشة توصيه برجل فوقع في كتابها: "هو بين أبويه"⁶¹
 ب - وفي قصة محبوبس: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له"⁶²
 ج - ووقع في قصة رجل شكك إليه عقوق ابنه: "ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد"⁶³

2 . الحجاج :

- أ - وقع في كتاب أتاها من قتيبة يخبره فيه أنه قد عزم على عبور النهر ومحاربة الترك: "لا تخاطر
 بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهمك"⁶⁴

⁵⁵ العقد الفريد ، 232/3.

⁵⁶ العقد الفريد ، 238/3.

⁵⁷ نصوص عربية ، عماد حاتم ، ص: 72.

⁵⁸ نصوص عربية ، عماد حاتم ، ص: 72.

⁵⁹ العقد الفريد ، 239/3.

⁶⁰ نصوص عربية ، عماد حاتم ، ص: 72.

⁶¹ العقد الفريد ، 240/3.

⁶² العقد الفريد ، 240/3.

⁶³ نصوص عربية ، عماد حاتم ، ص: 72.

ب. ووقع في قصة محبوس ذكروا أنه تاب: "ما على المحسنين من سبيل"⁶⁵

3. طاهر بن الحسين:

أ. وقع في كتاب رجل تظلم من أصحاب نصر بن شبيب: "طلبت الحق في دار الباطل"⁶⁶

ب. وكتب إليه السندي بن شاهك كتابا يستعطفه فيه فوقع فيه: "عش ما لم أرك"⁶⁷

ج. ووقع في رقعة مستبطن إياه الجواب بقوله: "ترك الجواب جواب"⁶⁸

4. الصاحب بن عباد:

جاء في كتاب إحكام صنعة الكلام، لذي الوزارتين أبي القاسم الكلاعي الأندلسي قوله: "ومن التوقيع ما يأتي بالحرف الواحد، حكى أبو منصور عن أبي النصر العتبي قال: كتب بعض خدم الصاحب بن عباد إليه رقعة فوقع فيها، فلما ردت إليه لم ير فيها توقيعاً، وقد تواترت الأخبار بقوع التوقيع فيها، فعرضها على أبي العباس الضبي، فما زال يتفحصها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: "فإن رأى مولانا أن يُنعم بذلك فعل" فأثبت الصاحب أمام (فعل) ألفاً يعني: (أفعل)⁶⁹.

خاتمة:

وبعد هذه الرحلة مع هذا اللون الفني من ألوان أدبنا العربي يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج لعل من أهمها:
أن فن التوقيعات فن له مكانته في أدبنا يحتاج إلى أن يتوقف عنده الدارسون وأن يخصصه المهتمون بعناية يستحقها.

يدل هذا اللون من الأدب على التدرج في الرقي الإداري والسياسي حيث انتقل الناس من المطالبة بحاجاتهم ورفع شكواهم مشافهة إلى تحريرها في رقاع ترفع إلى ولاية الأمر للنظر فيها.

⁶⁴ العقد الفريد، 241/3.

⁶⁵ سورة التوبة، الآية 92، وانظر العقد الفريد، 241/3.

⁶⁶ العقد الفريد، 244/3.

⁶⁷ العقد الفريد، 244/3.

⁶⁸ خاص الخاص للثعالبي، قدم له حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966م ص: 89.

⁶⁹ إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، الطبعة الثانية 1405هـ، 1985م، ص: 162.

أن أصحاب السلطان من خلفاء وأمرء ووزراء كانوا على قدر كبير من الثقافة والتذوق للفن والإبداع الأدبي مما جعلهم يسلكون هذا المسلك ويكتبون بهذه اللغة الفنية.

أن الحياة السياسية للأمة كانت تعيش قدرا من الرقي والنظام والمتابعة والرعاية، فالباب بين الساسة والرعية مفتوح، فتسمع الشكاوى وتلبى المطالب وتقضى حاجات الناس، إذا ما طرقت أبوابها وقصدوا من يملك قضاءها، فلم يتردد صاحب الباب أن يوقع لهم بأن المطلوب توفير المطلوب.

جاءت هذه التوقيعات محكمة البناء الشكلي متممة بالإيجاز في عباراتها موشاة بشيء من المحسنات البديعية، ومرصعة ببعض الاقتباسات القرآنية والتضمين الأدبي المتنوع.

المصادر والمراجع:

- ❖ القرآن الكريم برواية قالون عن نافع المدني.
- 1 - إحكام صناعة الكلام، لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، الطبعة الثانية 1405هـ، 1985م.
 - 2 - أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار الفكر بيروت لبنان، 1420هـ، 2000م.
 - 3 - الأمثال في النثر العربي القديم، عبد المجيد عابدين، الطبعة الأولى، دار مصر لطباعة، 1965م.
 - 4 - البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، 1984م.
 - 5 - تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، نقلاً عن: مظاهر الشعبية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد نبيه حجاب.
 - 6 - حضارة العرب في صدر الإسلام، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1412هـ، 1992م.
 - 7 - خاص الخاص للثعالبي، قدم له حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966م.
 - 8 - ديوان جرير، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2003م.
 - 9 - رائد الطلاب، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1981م.
 - 10 - الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الثقافة بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، 1400هـ، 1980م.
 - 11 - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

- 12 . ضحى الإسلام، أحمد أمين، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 13 . العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1988م.
- 14 . العمدة في محاسن الشعر ونقده، بن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، 1981م.
- 15 . فتوح البلدان، للبلاذري، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت 1991م.
- 16 . القاموس المحيط، الفيروز آبادي.
- 17 . الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1433هـ، 2012م.
- 18 . كتاب جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ، 1988م.
- 19 . لسان العرب، ابن منظور.
- 20 . مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد نبيه حجازي، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر.
- 21 . المعجم الأدبي جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- 22 . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
- 23 . مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، راجعه وعلق عليه أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ، 2008م.
- 24 . مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار العودة، بيروت، 1988م.
- 25 . نصوص عربية، عماد حاتم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1993م.
- 26 . نقاط التطور في الأدب العربي، علي شلق، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، 1975م.



